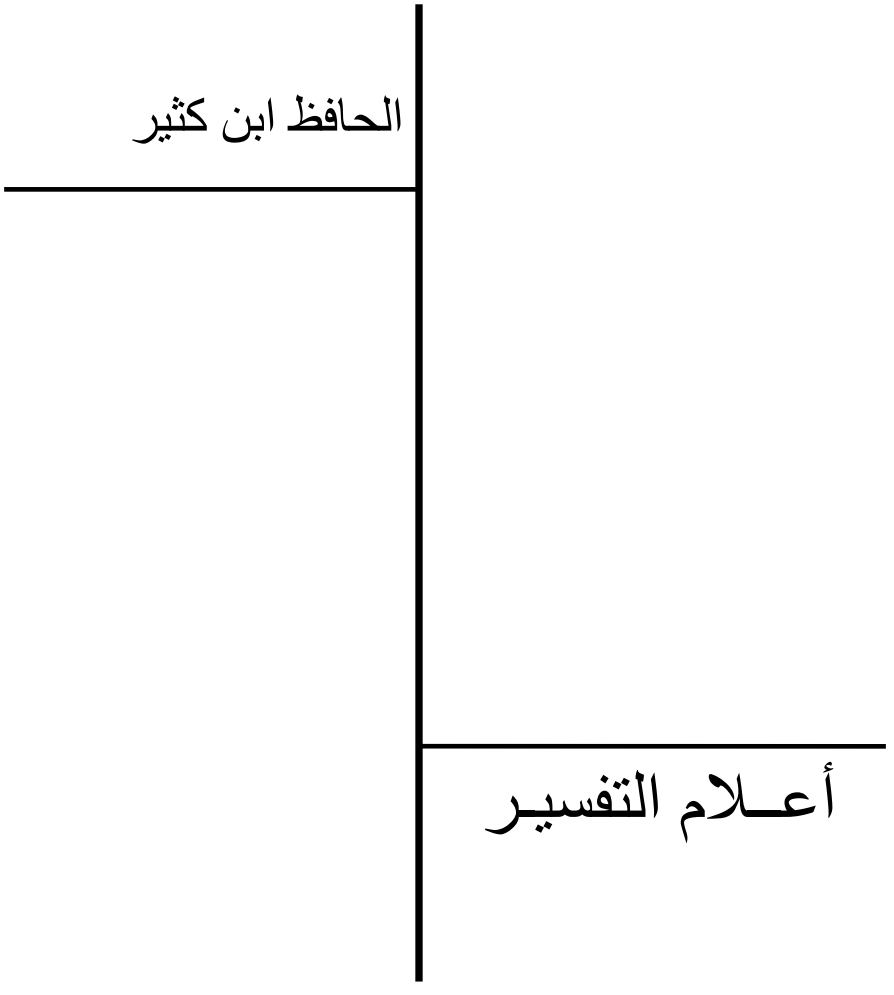
الحافظ ابن كثير
أعـلام التفسيـر

الحافظ ابن كثير

هو الإمام الحافظ، المحدث، المؤرخ، عماد الدين، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضوء بن كثير بن ضوء بن درع القرشي الدمشقي الشافعي.

ولد بقرية " مِجْدَل " من أعمال بصرى، وهي قرية أمه، سنة سبعمائة للهجرة أو بعدها بقليل.

نشأ الحافظ ابن كثير في بيت علم ودين، فأبوه عمر بن حفص بن كثير أخذ عن النواوي والفزاري وكان خطيب قريته، وتوفى أبوه وعمره ثلاث سنوات أو نحوها، وانتقلت الأسرة بعد موت والد ابن كثير إلى دمشق في سنة 707 هـ، وخلف والده أخوه عبد الوهاب، فقد بذل جهدًا كبيرًا في رعاية هذه الأسرة بعد فقدها لوالدها، وعنه يقول الحافظ ابن كثير: " وقد كان لنا شقيقا، وابنا رفيقًا شفوقًا، وقد تأخرت وفاته إلى سنة 750 هـ فاشتغلت على يديه في العلم فيسر الله منه ما تيسر وسهل منه ما تعسر " [1].

شيوخه:

تلقي الحافظ ابن كثير العلم علي يد كثير من الشيوخ منهم:

شيخ الإسلام أبو العباس أحمد بن تيمية، رحمه الله و الحافظ أبو الحجاج يوسف المزي، رحمه الله.

و الحافظ أبو عبد الله محمد بن أحمد الذهبي، رحمه الله.

و الشيخ أبو العباس أحمد الحجار الشهير بـ " ابن الشحنة ".

والشيخ أبو إسحاق إبراهيم الفزاري، رحمه الله والحافظ كمال الدين عبد الوهاب الشهير بـ " ابن قاضي شهبة " والإمام كمال الدين

(1) البداية والنهاية، 14/ 32.

أبو المعالي محمد بن الزملكاني، رحمه الله و الإمام محيي الدين أبو زكريا يحيى الشيباني، رحمه الله و الإمام علم الدين محمد القاسم البرزالي، رحمه الله والشيخ شمس الدين أبو نصر محمد الشيرازي، رحمه الله والشيخ شمس الدين محمود الأصبهاني، رحمه الله و عفيف الدين إسحاق بن يحيى الآمدي الأصبهاني، رحمه الله و الشيخ بهاء الدين القاسم بن عساكر، رحمه الله و أبو محمد عيسى بن المطعم، رحمه الله وجمال الدين سليمان بن الخطيب، قاضي القضاة ومحمد بن جعفر اللباد، شيخ القراءات وجمال الدين أبو العباس أحمد بن القلانسي، رحمه الله.وغيرهم الكثير.

ومن تلاميذه:

الحافظ علاء الدين بن حجي الشافعي، رحمه الله ومحمد بن محمد ابن خضر القرشي، رحمه الله وشرف الدين مسعود الأنطاكي النحوي، رحمه الله ومحمد بن أبي محمد بن الجزري، شيخ علم القراءات، رحمه الله وابنه محمد بن إسماعيل بن كثير، رحمه الله والإمام ابن أبي العز الحنفي، رحمه الله والحافظ أبو المحاسن الحسَيني، رحمه الله.

ثناء العلماء عليه:

كان ابن كثير، رحمه الله، من أفذاذ العلماء في عصره، أثنى عليه معاصروه ومن بعدهم الثناء الجم:

فقد قال الحافظ الذهبي في طبقات شيوخه: " وسمعت مع الفقيه المفتي المحدِّث، ذى الفضائل، عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير البصروي الشافعي.. سمع من ابن الشحنة وابن الزراد وطائفة، له عناية بالرجال والمتون والفقه، خرَّج وناظر وصنف وفسر وتقدم "[1].

(1) طبقات الحفاظ للذهبي، 4/ 29، أحمد شاكر، عمدة التفسير، 1/ 25.

وقال عنه أيضًا في المعجم المختص: " الإمام المفتي المحدِّث البارع، فقيه متفنن، محدث متقن، مفسر نقال "[1].

وقال تلميذه الحافظ أبو المحاسن الحسيني: " صاهر شيخنا أبا الحجاج المزي فأكثر، وأفتى ودرس وناظر، وبرع في الفقه والتفسير والنحو وأمعن النظر في الرجال والعلل "[2].

وقال العلامة ابن ناصر الدين: " الشيخ الإمام العلامة الحافظ عماد الدين، ثقة المحدثين، عمدة المؤرخين، علم المفسرين "[3].

وقال ابن تغري بردي: " لازم الاشتغال، ودأب وحصل وكتب وبرع في الفقه والتفسير والفقه والعربية وغير ذلك، وأفتى ودرس إلى أن توفى "[4].

وقال ابن حجر العسقلاني: " كان كثير الاستحضار، حسن المفاكهة، سارت تصانيفه في البلاد في حياته، وانتفع الناس بها بعد وفاته "[5].

وقال ابن حبيب: " إمام روى التسبيح والتهليل، وزعيم أرباب التأويل، سمع وجمع وصنف، وأطرب الأسماع بالفتوى وشنف، وحدث وأفاد، وطارت أوراق فتاويه إلى البلاد، واشتهر بالضبط والتحرير، وانتهت إليه رياسة العلم في التاريخ، والحديث والتفسير "[6].

وقال العيني: " كان قدوة العلماء والحفاظ، وعمدة أهل المعاني والألفاظ، وسمع وجمع وصنف، ودرس، وحدث، وألف، وكان له

(1) المعجم المختص للذهبي.
(2) ذيل تذكرة الحفاظ للحسيني ص 58، وعمدة التفسير لأحمد شاكر (1/ 26).
(3) الرد الوافر.
(4) النجوم الزاهرة (11/ 123).
(5) الدرر الكامنة.
(6) شذرات الذهب لابن العماد (6/ 232).

اطلاع عظيم في الحديث والتفسير والتاريخ، واشتهر بالضبط والتحرير، وانتهى إليه رياسة علم التاريخ والحديث والتفسير وله مصنفات عديدة مفيدة " [1].

وقال تلميذه ابن حجي: " أحفظ من أدركناه لمتون الأحاديث، وأعرفهم بجرحها ورجالها وصحيحها وسقيمها، وكان أقرانه وشيوخه يعترفون له بذلك، وكان يستحضر شيئا كثيرا من الفقه والتاريخ، قليل النسيان، وكان فقيها جيد الفهم، ويشارك في العربية مشاركة جيدة، ونظم الشعر، وما أعرف أني اجتمعت به على كثرة ترددي إليه إلا واستفدت منه " [2].

وقال الداودي: " أقبل على حفظ المتون، ومعرفة الأسانيد والتعلل والرجال والتاريخ حتى برع في ذلك وهو شاب " [3].

مؤلفاته:

أ - في علوم القرآن:

1 - تفسير القرآن العظيم.

2 - فضائل القرآن.

ب - في السنة وعلومها:

3 - أحاديث الأصول.

4 - شرح صحيح البخاري.

5 - التكميل في الجرح والتعديل ومعرفة الثقات والمجاهيل.

6 - اختصار علوم الحديث.

7 - جامع المسانيد والسنن الهادي لأقوم سنن.

(1) النجوم الزاهرة (11/ 123).
(2) شذرات الذهب لابن العماد (6/ 232).
(3) طبقات المفسرين.

8 - مسند أبي بكر الصديق، رضي الله عنه.
9 - مسند عمر بن الخطاب، رضي الله عنه.
10 - الأحكام الصغرى في الحديث.
11 - تخريج أحاديث أدلة التنبيه في فقه الشافعية.
12 - تخريج أحاديث مختصر ابن الحاجب.
13 - مختصر كتاب " المدخل إلى كتاب السنن " للبيهقي.
14 - جزء في حديث الصور.
15 - جزء في الرد على حديث السجل.
16 - جزء في الأحاديث الواردة في فضل أيام العشرة من ذي الحجة.
17 - جزء في الأحاديث الواردة في قتل الكلاب.
18 - جزء في الأحاديث الواردة في كفارة المجلس.

جـ - في الفقه وأصوله:

19 - الأحكام الكبرى.
20 - كتاب الصيام.
21 - أحكام التنبيه.
22 - جزء في الصلاة الوسطى.
23 - جزء في ميراث الأبوين مع الإخوة.
24 - جزء في الذبيحة التي لم يذكر اسم الله عليها.
25 - جزء في الرد على كتاب الجزية.
26 - جزء في فضل يوم عرفة.
27 - المقدمات في أصول الفقه.

د - في التاريخ والمناقب:

28 - البداية والنهاية.

29 - جزء مفرد في فتح القسطنطينية.

30 - السيرة النبوية.

31 - طبقات الشافعية.

32 - الواضح النفيس في مناقب محمد بن إدريس.

33 - مناقب ابن تيمية.

34 - مقدمة في الأنساب.

وفاته ورثاؤه:

في يوم الخميس السادس والعشرين من شهر شعبان سنة أربع وسبعين وسبعمائة توفي الحافظ ابن كثير بدمشق، ودفن بمقبرة الصوفية عند شيخه ابن تيمية، رحمه الله.

وقد ذكر ابن ناصر الدين أنه " كانت له جنازة حافلة مشهودة، ودفن بوصية منه في تربة شيخ الإسلام ابن تيمية بمقبرة الصوفية ".

وقد قيل في رثائه، رحمه الله:

لفقدك طلاب العلوم تأسفوا : وجادوا بدمع لا يبير غزير
ولو مزجوا ماء المدامع بالدما :: لكان قليلا فيك يا بن كثير (1)

التعريف بتفسير ابن كثير:

تفسير ابن كثير من أشهر ما دُوّن في التفسير المأثور، ويُعتبر في هذه الناحية الكتاب الثاني بعد كتاب ابن جرير. اعتنى فيه مؤلفه بالرواية عن مفسِّرى السَلَف، ففسَّر فيه كلام الله تعالى بالأحاديث

(1) مقدمة تفسير القرآن العظيم، لأبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، تحقيق سامي بن محمد سلامة، نشر دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية 1420هـ - 1999 م.

والآثار مسندة إلى أصحابها، مع الكلام عما يحتاج إليه جرحاً وتعديلاً. وقد طُبِع هذا التفسير مع معالم التفسير للبغوى، ثم طُبِع مستقلاً في أربعة أجزاء كبار.

وقد قدَّم له مؤلفه بمقدمة طويلة هامة، تعرَّض فيها لكثير من الأُمور التي لها تعلق واتصال بالقرآن وتفسيره، ولكن أغلب هذه المقدمة مأخوذ بنصه من كلام شيخه ابن تيمية الذي ذكره في مقدمته في أصول التفسير.

ولقد قرأتُ في هذا التفسير فوجدته يمتاز في طريقته بأنه يذكر الآية، ثم يُفسِّرها بعبارة سهلة موجزة، وإن أمكن توضيح الآية بآية أخرى ذكرها وقارن بين الآيتين حتى يتبين المعنى ويظهر المراد، وهو شديد العناية بهذا النوع من التفسير الذي يسمونه تفسير القرآن بالقرآن، وهذا الكتاب أكثر ما عُرِف من كتب التفسير سرداً للآيات المتناسبة في المعنى الواحد.

ثم بعد أن يفرغ من هذا كله، يشرع في سرد الأحاديث المرفوعة التي تتعلق بالآية، ويبين ما يُحتَج به وما لا يُحتَج به منها، ثم يردف هذا بأقوال الصحابة والتابعين ومَن يليهم من علماء السَلَف. ونجد ابن كثير يُرَجِّح بعض الأقوال على بعض، ويُضَعِّف بعض الروايات، ويُصحِّح بعضاً آخر منها، ويُعَدِّل بعض الرواة ويُجَرِّح بعضاً آخر. وهذا يرجع إلى ما كان عليه من المعرفة بفنون الحديث وأحوال الرجال.

وكثيراً ما نجد ابن كثير ينقل من تفسير ابن جرير، وابن أبى حاتم، وتفسير ابن عطية، وغيرهم ممن تقدَّمه.

ومما يمتاز به ابن كثير، أنه يُنَبِّه إلى ما في التفسير المأثور من منكرات الإسرائيليات، ويُحَذِّر منها على وجه الإجمال تارة، وعلى وجه التعيين والبيان لبعض منكراتها تارة أخرى.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى في الآية [67] وما بعدها من سورة البقرة: {إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةٗ} [البقرة: ٦٧].. إلى آخر القصة، نراه يقص لنا قصة طويلة وغريبة عن طلبهم للبقرة المخصوصة، وعن وجودهم لها عند رجل من بنى إسرائيل كان من أَبَرِّ الناس بأبيه.. إلخ، ويروى كل ما قيل من ذلك عن بعض علماء السَلَف:. ثم بعد أن يفرغ من هذا كله يقول ما نصه: " وهذه السياقات عن عبيدة وأبى العالية والسدىّ وغيرهم، فيها اختلاف، والظاهر أنها مأخوذة من كتب بنى إسرائيل، وهى مما يجوز نقلها ولكن لا تُصَدَّق ولا تُكَذَّب، فلهذا لا يُعتمد عليها إلا ما وافق الحق عندنا. والله أعلم ".

ومثلاً عند تفسيره لأول سورة " ق " نراه يعرض لمعنى هذا الحرف في أول السورة " ق " ويقول : ".. وقد روى عن بعض السَلَف أنهم قالوا :

" ق " جبل محيط بجميع الأرض يقال له جبل قاف، وكأن هذا - والله أعلم - من خرافات بنى إسرائيل التي أخذها عنهم مما لا يُصدَّق ولا يُكَذَّب، وعندى أن هذا وأمثاله وأشباهه من اختلاق بعض زنادقتهم، يُلَبِّسون به على الناس أمر دينهم، كما افترى في هذه الأُمَّة مع جلالة قدر علمائها وحُفَّاظها وأئمتها أحاديث عن النبى ﷺ، وما بالعهد من قِدَم، فكيف بأُمَّه بنى إسرائيل مع طول المدى وقِلَّة الحُفَّاظ النُقَّاد فيهم، وشربهم الخمور وتحريف علمائهم الكلم عن مواضعه، وتبديل كتب الله وآياته؟ وإنما أباح الشارع الرواية عنهم في قوله: ♂**وحدِّثوا عن بنى إسرائيل ولا حَرَج** ـــ فيما قد يُجَوِّزه العقل، فأما فيما تحيله العقول، ويُحكم فيه بالبطلان، ويغلب على الظنون كذبه، فليس من هذا القبيل. والله أعلم ".

كما نلاحظ على ابن كثير أنه يدخل في المناقشات الفقهية، ويذكر أقوال العلماء وأدلتهم عندما يشرح آية من آيات الأحكام، وإن شئتَ أن ترى مثالاً لذلك فارجع إليه عند تفسير قوله تعالى: {فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَ} [البقرة: ١٨٥].. الآية، فإنه ذكر أربع مسائل تتعلق بهذه الآية، وذكر أقوال العلّماء فيها، وأدلتهم على ما ذهبوا إليه، وارجع إليه عند تفسير قوله تعالى: {فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥ} [البقرة: ٢٣٠].. الآية، فإنه قد تعرَّض لما يُشترط في نكاح الزوج المحلِّل، وذكر أقوال العلماء وأدلَّتهم.

وهكذا يدخل ابن كثير في خلافات الفقهاء، ويخوض في مذاهبهم وأدلَّتهم كلما تكلَّم عن آية لها تعلق بالأحكام، ولكنه مع هذا مقتصد مُقِلٌ لا يُسرف كما أسرف غيره من فقهاء المفسِّرين.

وبالجملة.. فإن هذا التفسير من خير كتب التفسير بالمأثور، وقد شهد له بعض العلماء فقال السيوطى في ذيل " تذكرة الحفَّاظ " والزرقانى في " شرح المواهب " : إنه لم يُؤَلَّف على نمطه مثله [1].

* * *

(1) الدكتور محمد حسين الذهبى، التفسير والمفسرون، 4 / 37.